

التعدد اللغوي وسؤال الهوية في ظل صراع القيم والمرجعيات

Multilingualism and the Question of Identity under the Conflict of Values and References

د. بشير خليفي

أستاذ محاضر، قسم الفلسفة- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، باحث- مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية
جامعة مصطفى اسطنبولي- معسكر

Bachirkhelifi@yahoo.fr

ملخص

لا يمكن الحديث عن اللغة دون التطرق إلى ملمح الهوية، اللغة هنا ليست مجرد ملفوظات بقدر إحالتها للفكر، كما أن الهوية في ظل الصراعات الأيديولوجية والانتماءات المتشابهة لم تعد تقتصر على الإشكال الأنطولوجي الذي يسائل فيه الإنسان الغايات القصوى للوجود ومسبباته بقدر اعتبارها إحالة للمعنى الذي يشكله الفرد أو يتشكل عنده من خلال إضافات اجتماعية وتراكمات تاريخية إضافة إلى تحديات اقتصادية، ليتشكل المقصد في ظل هذه التحديات في غايات مستقبلية يكون عليها الفرد أكثر من إحالة إلى ماضٍ أطره محددة سلفاً، هذا ما يمكن إدراكه من خلال تأثير ظاهرة العولمة في ضوء صراع القيم والمرجعيات على الهويات والخصوصيات الثقافية. سنعمد في ورقة بحثنا إلى محاولة فهم تأثير التعدد اللغوي على مسألة الهوية، بدءاً بتحليل المفهومين ثم البحث في التأثير المتبادل والتفاعل المستمر آخذين بعين الاعتبار هلامية مفهوم الهوية وتعدد تمظهراته، وكذا بوصفه مفهوماً حياً في إطار التشكل من خلال المستجدات التي أحدثتها ويحدثها حوار وصراع الهويات ضمن إطار سياقاته المتعددة. كما سنحاول فهم واستقصاء تأثير التعدد اللغوي من منطلق إحالة اللغة للفكر، ومن ثمة تأثير صراع القيم والمرجعيات على الهوية ليس بوصفها تصوراً ماضوياً نهائياً فحسب، وإنما في إحالتها إلى جملة التحديات التي يقتضيها التفاعل المستمر مع ما يحيط بالفرد.

الكلمات الدالة: لغة، تعدد لغوي، هوية، عولمة، فكر.

Abstract

It is quite difficult to deal with language without mentioning the identity feature. Language in this case oversteps utterances for referring to the thought. Furthermore, the Identity as cultural and philosophical problematic has required a different meaning and types. Our target in our research paper is to investigate the impact on multilingualism phenomenon on the identity issue, from analyzing notions until paraphrasing the mutual impact and interaction, taking in consideration the sensitivity and the specificity of the identity concept. Also, we want to know the impact of multilingualism on the values and references Conflict, not in its historical and ancient vision, but in its relation with plenty of challenges that required constant interaction with what surrounds the individual.

Keywords: Language, Multilingualism, Identity, Globalization, Thought.

مقدمة

المظهر والمخبر. ثم إن ثمة هوية نفسية تبدأ بشعور الفرد بكيونته الخاصة وبحالاته النفسية، فيدرك ذاته ويعترف على نفسه بأنه "هو- هو" على الرغم مما يعتره من تغير ونمو، بيد أن اهتزاز هذا الشعور مرتبط بالأوضاع النفسية التي قد تصيب شخصية الفرد بالشكل الذي يؤثر سلباً على معرفته لذاته الحقيقية ومن ثمة هويته.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ارتباط الهوية بمجال المنطق، هذا ما عبر عنه أرسطو بقانون الهوية أثناء بسطه لقوانين الفكر، التي تشمل عدم التناقض والثالث المرفوع أو المرفوض، حيث ربط أرسطو الهوية المنطقية بثبات الحد من حيث لفظه ومعناه بغرض تحقيق الاستنتاج ضمن إطار المنطق الصوري المؤسس على عدم تناقض الفكر مع نفسه، ويمكن الحديث أيضاً عن الهوية الاجتماعية التي يتميز من خلالها مجتمع عن آخر، من خلال عنصر الانتماء الذي يشعر به الفرد في إطار الخصوصية التي يتميز بها مجتمعه.

من خلال ما سبق تتضح العلاقة الوطيدة بين الهوية والثقافة، حيث تمثل الهوية الخصوصية ضمن إطار مُمأسس، في إحالة إلى جملة السمات التي تميز ثقافة عن أخرى، هذا ما يمكن إدراكه في مختلف الثقافات التي ترنو للاستمرارية والانتشار من خلال التركيز على هوية الثقافة نفسها درءاً للتخلف والانحطاط أو مقاومة وتجاوزاً لإكراهات العولمة بمعناها الثقافي خصوصاً في ضوء سعي حثيث لنشر ثقافة عالمية مبنية على الأحادية القطبية وتأثير الاستهلاك المؤدي لسُلعنة القيم، الأمر الذي يفضي إلى إشكال وجودي مرتبط بسؤال الثابت والمتحول أثناء البحث عن الحضارة بوصفها ثقافة متقدمة، ضمن إطار هويتي يدفع الفرد إلى الاعتزاز بخصوصيته وانتمائه وفي الوقت نفسه يدفع بالأفكار والثقافات إلى الانبعاث والتجدد بالشكل الذي يجدد الخلق والإبداع،⁽⁴⁾ ضمن هذا الإطار تبرز أهمية اللغة بوصفها ملمحاً أساساً لشعور الفرد وكذا الجماعة اللغوية بهويتها، لأن اللغة مظهر الثقافة الأبرز، فإلى حد كبير يمكننا أن ندرك أشياء كثيرة عن هوية إنسان ما بمجرد استعماله للغة، فنذكر مثلاً جنسيته، ثقافته، سنه، جنسه، دينه... فتعبر اللغة والهوية أيضاً عن انتماء لثقافة معينة بطريقة تجيز الحديث عن هوية لغوية غالباً ما تتضح بمجرد التلطف بكلمات وجمل، وحتى حين التكلم باللغة الواحدة هذا ما يمكن إدراكه في اللغة الانجليزية حينما ينطقها البريطاني والأمريكي والهندي والنيجيري، وكذا الحال بالنسبة للغة العربية تبعاً للجغرافيا اللسانية بوصفها مجالاً بحثياً متفرعاً عن اللسانيات العامة يهتم بتنوع اللغات واللهجات تبعاً للتوزيع الجغرافي أو بعبارة أخرى دراسة اللغات واللهجات من زاوية جغرافية. كما يمكن إدراكه عن طريق السن والجنس، فتعبيرات المراهقين من حيث انتقائهم لألفاظ وصياغات معينة تبدو إجمالاً مختلفة عن النزوع التعبيري لدى الكهول والمسنين وذلك بحكم مقتضيات كل مرحلة عمرية، إذ غالباً ما تتسم مرحلة المراهقة بالاندفاع والرغبة

تعد اللغة موضوعاً بالغ الأهمية بوصفها وسيلة التواصل الإنساني عبر إيصال وتبادل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز⁽¹⁾ كما عرفها الأنثروبولوجي واللساني الأمريكي إدوارد ساپير Edward Sapir (1884-1939)، وكذا بوصفها مظهر الثقافة الأبرز، إذ لا مجال لفهم الأفكار والوقائع دون لغة تلقى على عاتقها مسؤولية التحليل والفهم والعرض، كما أن إدراك الكون رهين بالمسميات والمعاني التي نحوزها حولها. بيد أن توصيفاً على هذه الشاكلة لا يدرأ وجود إشكالات ومعضلات يطرحها توظيف اللغة من منطلق أن الصراع الفكري بين الثقافات يستحيل في نهاية المطاف إلى صراع لغات، حيث إن للغة منطقتها الخاص الذي يعكس مفاهيمها، ويصير الاستعمال اللغوي لدى الأفراد مقياساً مهماً لمعرفة منطق مجتمع ما، وإلى حد كبير معرفة فكره وتطوره من عدمه. لذلك غالباً ما تسعى الشعوب المستقلة إلى تحديد معالم هويتها اللغوية والثقافية، يتضح ذلك مثلاً في الاجتماعات والمؤتمرات السياسية حيث يسعى كل طرف إلى إبراز لغته، زيادة على تفعيل السياسة اللغوية التي تشرف عليها الجهات الرسمية عبر ما يسمى بالتخطيط أو التدبير اللغوي (Language Planning) المتبع في مجتمع ما بغرض الحفاظ على لغته وتسويقها فهو في نهاية المطاف دفعا لتغيير لغوي أو توقيفاً له⁽²⁾. والواقع أن التوصيف السابق قد يصطدم بمعضلة التعدد الثقالي والعرقى داخل دولة معينة بما يستجلب تعدداً لغوياً يساوقه بالمقابل تعدد ثقافي ينسحب على كثير من مظهرات الثقافة بحسب توصيف الأنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor (1832-1917) الذي يحدد الثقافة بوصفها "مختلف المعارف والمقدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع."⁽³⁾ غرضنا في هذه الورقة يتماهى مع الرغبة في معرفة علاقة الهوية باللغة في مقام أول ثم بحالة التعدد اللغوي بشكل أساس في ظل صراع القيم والمرجعيات من خلال معالجة الإشكال التالي: هل يؤدي الإقرار بالتعدد اللغوي إلى صراع في القيم والمرجعيات بالشكل الذي يؤثر سلباً على الهوية أم أن الأمر لا يعدو كونه إضافة واغتناء يؤدي بالضرورة إلى هوية منفتحة تغتنى بالتعدد والتنوع؟

اللغة وسؤال الهوية أو هل يجوز الحديث عن هوية لغوية؟

يجب الاعتراف في مقام أول بعسر تعريف الهوية وكذا بصعوبة ردها إلى مجال معرفي محدد ومغلق، لذلك لا يمكن فهمها إلا من خلال مقاربة تخصصية (متعددة التخصصات) تدرك تشعبها واتساعها لتشمل عدداً من العلوم والمجالات. ولعل إدراكها الأول والبسيط يتم من خلال ملامح الفرد وأوراقه الثبوتية التي تميزه عن غيره، مما يعني حضور هوية فيزيولوجية تبدأ في مقام أول عبر الوراثة بالجينات التي تحمل الاستعدادات الأولية التي يكون عليها الفرد على مستوى

كان تعدد اللغات واقعا فإن أسبابه متعددة تعود بالأساس إلى أسباب انتشار اللغات في العالم وكذا إلى العلاقات فيما بينها، حيث يبرز دور العامل الاقتصادي الذي كثيرا ما يدفع الأفراد إلى الهجرة، هذا زيادة على دور العامل السياسي والاجتماعي حيث يمكن لجماعات لغوية متعددة أن تنضوي تحت دولة على غرار الألمان، الإيطاليين، الرومانش والفرنسيين الذين ينضون تحت علم الدولة السويسرية. ثم إن اتساع السجل اللغوي كثيرا ما يرتبط بعوامل ذاتية تحت تأثير دوافع تعليمية وثقافية مثلما حصل مع العالم اللغوي الأمريكي جورج شميدت George Schmidt الذي كان يتكلم 19 لغة بطريقة جيدة، وكذا جيمس موراي James Murray ناشر معجم أكسفورد الذي كان يتقن أكثر من 20 لغة⁽⁸⁾.

بيد أن ثمة افتراق حينما تطرح المسألة في ضوء ما سماه لويس جان كالفى بحرب اللغات بمعنى الصراع الذي يفضي إلى سيطرة لغات وإزاحة أخرى حينما يغيب التدبير اللغوي ويكون الناتج تهديدا للوحدة والثقافة الوطنية وكذا المصير المشترك⁽⁹⁾، خصوصا وأن ارتباط اللغة بالعرق (الاثنية) أو بالسمّة الوطنية ومن ثمة الهوية في أشكالها المتعددة يجعلها تتعرض لتهديدات قد تصل إلى مرحلة الانقراض الحاصل من قلة الاستعمال سواء عبر التداول اليومي أو باعتبارها لغة العلم والإبداع بما يسمح لها بأن تكون حافظة للتراث وناقلة للمعارف والأفكار.

ولعل أهم عامل أدى إلى جعل التعدد اللغوي رديفا للصدام الهوياتي يتمثل في عامل الاستعمار أو بالأحرى الاستيطان ودوره الحثيث والمستمر في نشر ثقافته ولغته، فيجد الفرد نفسه بلغتين وثقافتين ومنظومتين قيميتين مختلفتين قد تصلان حد التنافر والتناقض⁽¹⁰⁾، علما أن اللغة مقوم أساس للشعور بالهوية، هوية الانتماء التي تجعل الفرد على المستوى النظري مطمئنا داخل السياق الاجتماعي في شكله المتحضر والمنفتح، حيث يجد يسرا في الاندماج الأمر الذي يسهل عليه القيام بواجباته والمطالبة بحقوقه، زيادة على اللغة بحسب تعبير الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر Martin Heidegger (1889-1976) "مسكن الكينونة لأنها إعلان عن الوجود"⁽¹¹⁾ فالفرد لا يمكنه التعبير عن خصوصيته وكينونته دون جملة المفردات والعبارات التي يعبر بها عن مكنوناته، لذلك كثيرا ما يحث المختصون في التدبير اللغوي (Language Planning)، إلى تعلم اللغات الوطنية أولا كحالة "تمتس هوياتي" تضمن للفرد خصوصيته الثقافية واستقلاله الفكري، ليتم بعد ذلك في مقام ثان الانطلاق في تجربة تعلم اللغات بوصفها حقا مشروعاً ومقصدا ثقافيا يحقق به الفرد ذاته ليتمكن من الاطلاع على الثقافات المختلفة. أما على الصعيد المجتمعي فإن الأمر يحتاج إلى تودة حينما تتكون الدولة من أطراف لغوية متعددة، فيكون الحق لكل جماعة لغوية (Linguistic Group) بوصفها مجموعة لسانية تجمعها اللغة بوصفها الملح الهوياتي الأبرز في أن توظف لغتها وأن تطور مجالات استعمالها، والدليل على ذلك

في الظهور بشكل يؤثر على طبيعة اللغة المستعملة من حيث الصياغة والمفردات، وكذا الحال حينما يتعلق الأمر بسمات التعبير الأساسية لدى الرجال والنساء على مستوى طبيعة الصوت أو في علاقة اللغة بالعاطفة، وكذا المثقفين والأमीين حينما يتعلق الأمر بطبيعة اللغة المستعملة والتي تعد ملامحا رئيساً للتصنيف.

كما يبرز حضور الهوية عن طريق التنشئة الاجتماعية التي تستند على اللغة، وفي مقام محدد تبرز التنشئة اللغوية بأهميتها البالغة في مد الفرد بهوية اجتماعية ومن ثمة اكتساب هوية خاصة، إذ لا مجال للحديث عن تطابق بين الأفراد فلكل لكانته وطابعه اللغوي الخاص، ولكل أيضا قاموسه اللغوي تبعا لاهتماماته وتطلعاته، حيث يمكن تشبيه اللغة في علاقتها بالهوية الفردية بالبصمة فيما كان شخصان أن يطفقا في التعبير عن موضوع أو وصف منظر محدد وليكن الحديث عن أهمية اللغة، حيث يمكن من باب الاحتمالات أن تتطابق بعض المفردات والصياغات في مقدمة التحليل، بيد أن الأمر سيخذ طابع الخصوصية اللغوية بمجرد الغوص في الموضوع، الأمر الذي يعطي للتفاعل "الفرد- الاجتماعي" قيمته ومعناه، في ظل تميز الفرد عن غيره وشعوره في الوقت عينه بنفسه ومعرفته للجوانب المحددة لشخصيته، فتكون اللغة بهذا الشكل معلنة لهذا التمييز والانتماء.

إن تشكل الهوية اللغوية خاضع على مستوى المبدأ لجملة المكتسبات والقيم التي يحصل الفرد عليها، وغالبا ما تقوم الأسر والمجتمعات بتعليم اللغة الأم والخصوصيات الثقافية التي يعرف تميز المجتمع والفرد على حد سواء، لأن التنشئة اللغوية تتعدى تعليم اللغة إلى تعليم القيم والثقافة، فإلى جوار تحسين النطق وتجويده ثمة إضفاءات تبرز بصمة المجتمع عبر ما ينبغي ويجوز قوله وما لا يجوز.

التعدد اللغوي وسؤال الهوية

تساهم اللغة في تطوير ملكات الفرد، بوصفها وسيلة الاكتساب والتعلم، كما تساهم اللغة ذاتها عبر مجازاتها التعبيرية وتراكيبها الفكرية وانعطافاتها المفهومية في إغناء عالم الفرد وتطوير حياته⁽⁵⁾. وقد يتضاعف الأمر ويتنوع حينما يتعلق بتعدد لغوي يلقي على عاتقه تحقيق الإضافات الممثلة في الخبرات والمعارف الجديدة، من منطلق اعتبار التعدد اللغوي إجابة إلى استعمال أكثر من لغتين من طرف فرد أو مجتمع⁽⁶⁾، لذلك يعد نتاجا للقدر على الفهم، القراءة، الحوار والتواصل، وكذا اعتباره مسارا ضروريا يفرضه الواقع والمأمول ممثلا في نظام التعليم بما في ذلك التعليم المستمر والحياة الثقافية زيادة إلى التطلع لبناء مجتمع المعرفة.

إن تعلم الفرد للغات جديدة زيادة على قدرته على توظيفها يعد ملامحا أساسا للتعدد اللغوي، كما أن وجود لغات عديدة في دولة تضم عرقيات وجماعات لغوية مختلفة أو ضمن الإطار الإنساني العام يعد دليلا على تعدد اللغات والثقافات⁽⁷⁾. وإذا

الوظيفة المتلى للغة تعني الإحالة للفكر حيث أن التكلم تفكير صائت في حين إن التفكير كلام صامت، لذلك فإن تحديد العلاقة بينهما أمر بالغ الضرورة بالنظر للرهانات المتعددة التي ينتجها استعمال اللغة، فإلى جوار اعتبار استمرارية لغة ما منوطة بالاستعمال فإن أمر اللغة لا يتعلق فقط باعتبارها واسطة التواصل، بل اعتبارها ملمحا هوياتيا بالغ الأهمية زيادة على اعتبارها مظهر الثقافة الأول، لذلك فإن كل حوار أو صراع ثقافي قائم على اللغة بالضرورة، وأن الترويج للثقافة بمختلف مظهراتها وتجلياتها عبر مختلف المعارف والمقدرات الفردية والاجتماعية لن يكون له أي دور أو فاعلية دون لغة تعلن عن وجودها ووجود ما تعبر عنه. لذلك فإن التعدد اللغوي لا ينظر إليه بوصفه تعددا للوسائط فقط بقدر اعتباره تعددا في الثقافات والمرجعيات التي قد تتخذ طريقتين في تحديد العلاقة إما تجاور وحوار أو صراع وتصادم.

إن اللغة التي يحوزها الفرد تقوده لكي يدرك العالم بطريقة مختلفة⁽¹⁵⁾، أحدثت هنا عن اللغة بوصفها منظومة اجتماعية عامة وبوصفها أيضا خبرة ذاتية يعرف من خلالها الفرد ذاته ويتعرف على غيره، ضمن منظومة قيمية ما، لذلك يمكن القول بأن لكل لغة منظوماتها القيمية المتعددة مع الاعتراف بوجود منظومة قيمية مهيمنة، مع الاعتراف أيضا بأن القيم تتمظهر بوصفها مقومات معنوية بالغة الأهمية للتواصل واستمرارية الحياة⁽¹⁶⁾. بيد أن الواقع يثبت أن عالم اليوم قائم على الصراع الذي ينسحب بدوره على العلاقة بين اللغات، ففي ظل نظام سياسي قائم على تعددية لغوية يكون من الخطأ عدم العناية بالجماعة أو بالأقلية اللغوية لارتباط اللغة بالهوية أو بالانتماء العرقي، لما في ذلك من أثر على الانسجام بين باقي التشكيلات اللغوية⁽¹⁷⁾، لذلك عمد المهتمون بالشأن اللغوي إلى إيجاد الآليات التي تضمن للغة استمراريته وتبحث في سبل انتشارها عبر ما يسمى بالتخطيط اللغوي الذي تبدو استراتيجياته واضحة على سبيل المثال من خلال منظمة الضرائفونية ودورها البارز في نشر اللغة الفرنسية.

إن صراع اللغات هو في الوقت عينه صراع بين الثقافات وبين القيم والمرجعيات التي تتبناها كل ثقافة، بل إنه لم يعد من الممكن الحديث عن أحادية هوياتية حتى داخل المنظومة اللغوية الواحدة، على الرغم من أن الطفل يولد بين ظهرائه لغة وثقافة محددة سلفا، يتعرف بلغته الأولى على نمط ثقافته، كما أن لغته الأولى هي اللغة الانفعالية الثانية بعد الصراخ والبكاء، بها يفرح ويغضب ويعلن عن حاجاته. لكن طبيعة التواصل القائمة اليوم على الاختراق عبر ما يعرف بالعوالم لم يعد من الممكن معها الإبقاء على الاستعمال اللغوي المحلي والوطني من دون انفتاح ودون جهود جبارة تأخذ على عاتقها ربط اللغة بالفكر والاقتصاد، زيادة على تطويرها على مستوى البنية والاستعمال. فزمن العولمة اليوم هو زمن الاختراق بامتياز تعتبر فيه دول الجنوب أو العالم المتخلف سوقا يتم فيه تصريف وتسويق المنتجات بمختلف مظهراتها

التدبير اللغوي الموجود في سويسرا، بلجيكا، كندا والهند والذي مكن إلى حد كبير من إيجاد نقاط تقاطع تمكن الأفراد من التفاهم والتواصل.

إن التعدد اللغوي الرصين في مجتمع معين ليس أمرا مرتبطا بالجهات التعليمية فقط، بل هو مسار مجتمعي ينبغي أن يوفر للمتطلعين إمكانات التعليم المستمر في أن يتعلموا اللغات، التي أصبح تعلمها أمرا مفروضا بالنظر للضرورات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية، أما الاكتفاء بلغة واحدة فقد يعني بالضرورة العزلة وعدم التمكن من مسايرة متطلبات العصر التي تفرض على الإنسان وخصوصا الباحث الأكاديمي أن يكون عارفا بلغات متعددة لكي يتمكن من الاطلاع على الأفكار والمعلومات من مصادرها.

إن الرغبة الحثيثة في تأسيس مجتمع المعرفة تبدأ في مقام أول من إجادة اللغات الوطنية ثم الانفتاح على اللغات المختلفة، ولكي لا تكون الهوية ممزقة أو مفروضة ينبغي للمجتمع ولألفية التنشئة الاجتماعية أن تحسن طرائق تعليم اللغات بما يستجيب لمتطلبات المتعلمين، مع تطوير تعليم اللغات الوطنية على مستوى الشكل والمضمون وذلك باستعمال وسائط الاتصال والأساليب التكنولوجية، إضافة إلى تطوير المضمون وجعله أكثر فاعلية وجاذبية خصوصا وأن تعلم اللغة الوطنية بشكل حضاري يعني بالضرورة استغراقا في هوية مفتوحة تتجه نحو الناكرة بغرض الحفاظ عليها، مع العلم أنه دون تاريخ ليس ثمة وجود مادي ولا رمزي يفرض على التعرف على الكينونة ويعلن عن وجودها، ضمن هذا السياق لا يمكن للفرد أن يعرف ذاته الحقيقية ولا أن يتواصل مع غيره بشكل لائق⁽¹²⁾. ولأن الهوية اللغوية في معناها العام ليست قيمة مضافة معطاة بشكل مباشر ونهائي وإنما هي نتاج مسار يرتبط بالشعور في ديمومته وتعبده، يبرز في مقام أول من خلال شعور الفرد بعدم بعدم مطابقتها غيره، وبحسب أمين معلوف فإن ميلاد فنان في كابول أو في أوسلو لا يعني بالضرورة الشيء نفسه، لاختلاف في منطق ومنطلقات ومآلات التنشئة⁽¹³⁾.

التعدد اللغوي في ظل صراع القيم والمرجعيات

على الرغم من العلاقة غير المحددة بين اللغة والفكر، فإن اللغة تقوم بدورين أساسيين إنها تحيل إلى الفكر وتعلن عن وجوده، ثم إنها تقوم بنقله وبسطه، لذلك هناك من يرى أن اللغة هي الفكر ذاته، حيث إن الأفكار غير المعبر عنها هي أفكار غامضة أو ليست موجودة بالطلق، الأمر الذي دعا الفيلسوف البريطاني ذو الأصول النمساوية لودفيج فتغنشتاين (1889-1951) Ludwig Wittgenstein إلى اعتبار أن سوء الفهم في الفكر صادر عن سوء استخدام منطق اللغة، لذلك ينبغي السكوت حينما نعجز عن الكلام، "إن ما لا نستطيع التحدث عنه يجب أن نتجاهله بالصمت"⁽¹⁴⁾. ثم إن للغة وظيفتين داخليتين تمكن الفرد من التواصل مع نفسه ومعرفته أفكاره، وأخرى خارجية متعلقة بالتواصل والمحادثة. إن

حرية الفرد الشخصية.

إن الاضطراب الهوياتي بوصفه حالة من الاغتراب والاستلاب تقف حائلاً أمام الشعور الإيجابي للفرد بذاته وانتمائه لمجتمعه، مرده في الغالب إلى عطب في الثقافة وعدم قدرتها على تحقيق الهوية المطمئنة للأفراد، الثقافة هنا بمعناها المعرفي والحضاري أي جملة المنجزات المعرفية والحضارية المحققة، زيادة على الرضا والطمأنينة التي يحوزها الفرد من جراء انتمائه، حينما يحقق المجتمع تطلعاته في ضرورة العيش المشترك ويساعده على إثبات ذاته ضمن إطار الكرامة الإنسانية، الأمر الذي يثبت عدم الارتباط الدائم للغة بالهوية، فاللغة جزء كبير من الهوية، دون أن يعني ذلك المحايثة أو التماهي المطلق في كل الحالات، إذ يتجاوز الأمر لصالح مختلف البنى والظروف التي يحياها الفرد، والتي تجعله إما مدركاً كينونته بشكل سليم عادة ما يعبر عنه بهوية مطمئنة أو متفتحة، أو بالمقابل يعيش الانقسام والضياع عبر هوية مضطربة تعيش تناقضاً قيمياً ومرجعياً لا يمكن الفرد من معرفة ذاته أو التطلع إلى مستقبل أفضل...

ويتأجج الاضطراب الهوياتي في علاقته بالتعدد اللغوي عند الأفراد أو المجتمعات المتخلفة أو تلك التي لم تقم بتدبير لغوي ناجع وفعال وفق أسس علمية وديمقراطية، فعوض أن تكون اللغات إضافة تحقق أعماراً جديدة للفرد وتمثل تنوعاً وتعدداً ثقافياً داخل المجتمع، تستحيل إلى حالة من الإقصاء اللغوي الذي غالباً ما تكون نتيجته سوء تقدير سواء للغة المنشأ والمعطى التداولي أو للغات المساهمة في التطور العلمي والثقافي، لذلك يبدو أن التعدد اللغوي والثقافي الإيجابي بيئته الخاصة التي تحضى بالتنوع وتجعله أساس العيش المشترك، دون أن ينفي ذلك إجرائية وأهمية التدبير اللغوي في إحداث التنظيم الإيجابي والفعال للواقع اللغوي داخل مجتمع معين بغرض إيجاد وسائل للتواصل بين اللغات واللهجات، وكذلك بهدف التصريف الإيجابي لصراع القيم والمرجعيات بوصفه حالة طبيعية تفرضها منطوق العلاقات بين الأفراد والمجتمعات، ليتم تحويلها إلى حالات إغناء وإثراء للمنظومات القيمية والمرجعيات على مختلف مظهراتها وتجلياتها عوض جعلها سبباً للإقصاء والعنف وكذا لتوتر العلاقات بين الأفراد والمجتمعات.

كما يمكن لصراع القيم والمرجعيات أن ينطلق من داخل المنظومة الثقافية التي يحوزها الفرد من خلال نظرة مسبقة للغة وثقافة أخرى، وعلى سبيل المثال نظرة البعض للغة العربية بوصفها لغة شعر بعيدة عن العلم، ونظرة أخرى للغات أخرى بوصفها ضرورة واعتبارها مدخلاً للتقدم والانفتاح على المنجز الإنساني. إن تصنيفاً بهذا الشكل يحدد اللغة وفق منظومة قيمية جامدة، يعد سبباً رئيساً في صراع لغوي باتجاه الإبعاد والإقصاء، في حين تقتضي الضرورة المعرفية للغات أن تتساند وتتآزر بغرض تحقيق الإضافة وإحداث التكامل المعرفي.

وتجلياتها الاقتصادية، العسكرية والثقافية بما في ذلك اللغة، بل وخصوصاً اللغة بوصفها وسيلة المعرفة الأولى.

لذلك في ظل صراع الكلمات والأفكار أو حرب اللغات بتعبير جون لويس كالفين تسعى الدول والمجتمعات إلى الترويج للغاتها وثقافاتهما، وبملاحظة بسيطة على وسائل التواصل ندرك الكم الهائل من المواقع التي تعرض وتيسر تعليم اللغات، هذا زيادة على تشجيع الإنتاج المعرفي والاختراع العلمي ضمن أبعديتها، ندرك ذلك أيضاً من خلال القيمة العلمية للغة، فالبحث في مجال الطب مثلاً لن يجد له رواجاً عالمياً إلا إذا كتب باللغة الانجليزية أو ترجم إليها، وكذا الحال بالنسبة لكثير من الأجهزة الالكترونية التي عادة ما ترفق بدليل استعمال من لغة المصدر.

إن هزيمة لغة معينة يعني غيابها، وبالتالي غياب أو ضعف مرجعيتها وقيمتها، الأمر الذي يؤدي إلى انقراضها كما حصل لكثير من اللغات واللهجات المحكية، مما يسهل الاختراق اللغوي الذي يظهر في ملمح أولي عبر ازدياد اللغة الوطنية وقلّة استعمالها مجتمعياً ورسمياً، ليصل الأمر إلى هيمنة حضارية يفقد من خلالها الأفراد خصوصيتهم الثقافية واللغوية، ويزداد الأمر حدة حينما يرتبط هؤلاء الأفراد بهويات مضطربة أو مفروضة، لا تدرك أهمية اللغة للتعريف بالخصوصية والمواطنة كما لا تملك القدرة على الانفتاح اللغوي السليم، وبالتالي تتخذ مواقف حدية قصوى إما التمسك باللغة الأولى في إطار من العزلة والانفعال أو إضاعتها لصالح لغات وثقافات أخرى. وأم المشكلات أن يُعتمد على الاستثمار في السوق اللغوية دون تدبير ديمقراطي يأخذ بعين الاعتبار حرية الفرد في اكتسابه اللغة وحرية المجتمع في الانسجام بالخصوصية والانفتاح، خصوصاً عند المجتمعات المستعمرة أو الحديثة العهد بالاستقلال، لذلك لا خيار من تأصيل تدبير لغوي يأخذ على عاتقه تفعيل اللغات الوطنية والانفتاح على تجارب عالمية في تدريس اللغات والتشجيع على اكتسابها، وهذا ما تقوم به الدول المتطورة في رعاية لغاتها الوطنية، فيتم انتقاء المضامين التعليمية بما يتماشى مع القيم الوطنية خصوصاً في المراحل العمرية الأولى، زيادة على تفعيل وتجديد طرائق ووسائل تعلم اللغات بما يساهم بتجاوز مشكلات تعلمها.

لذلك يبدو أن تحقيق هوية مطمئنة ومنفتحة في ظل التعدد اللغوي القائم على صراع القيم والمرجعيات لا يمكن أن يكون أو يستمر بوسائل قاهرة مفروضة، بل الأمر نتاج مسار طويل من التداول والتصويب عبر سلطة الإقناع والتحفيز، إذ لا يستقيم الأمر في ظل عالم لا يعترف بالعزلة والاعتكاف أمام التطور الهائل في وسائل الاتصال وأمام الثورة الكبيرة للإعلام عبر الطريقة السلسة والسريعة في تدفق المعلومات، لم يعد من اللائق الحديث عن هوية مفروضة باسم الخصوصية، بمقابل الإجراءات والأكراهات التي تبسطها اللغات والهويات الأخرى، من خلال الدعوة إلى قيم مغربية ومتجددة تعلي من شأن

Education in Morocco. Springer, USA. 2005, P 19.

11- Steiner George, Martin Heidegger, University of Chicago Press, USA. 1991, P 127.

12- Erika Apffelbaum et Anna Vasquez, Les Réalités Changeantes de L'identité. In, L'identités Déchirée, Magazine Peuples Méditerranéens, N 24, Paris, Sep 1983, P 83.

13- Amin Maalouf, Les Identités Meurtrières, Edition Grasset et Fasquelle, Paris, 1998, P 31.

14- Anscombe G.E.M. An Introduction to Wittgenstein's Tractatus, University of Chicago Press, U.S.A. 1979, P18.

15- جرين جوديت، التفكير واللغة، تر: عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص112.

16- طه عبد الرحمن، تعددية القيم: ما مداها وما حدودها؟، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، المملكة المغربية، ط1، 2001، ص13.

17-Edwards John, Multilingualism, P 125.

خاتمة

التعدد اللغوي حالة إيجابية ووضعية راقية سواء للفرد والمجتمع، خصوصا حينما يتم تجسيده عن طريق تدبير لغوي راق يأخذ على عاتقه تطوير اللغة أو اللغات الوطنية في مقام أول، وتشجيع تعلم اللغات الأجنبية وتوفير شروط ترقيتها واستعمالها خصوصا في المجالات البحثية والاقتصادية. فيكون التعدد بهذا المنطق مدخلا لتنافس إيجابي بين الأفراد والمجتمعات ليس بغرض الإقصاء والإحالة إلى العدم، وإنما إيجاد أجواء التنافس المفضية للاجتهاد والإبداع، فيعمد الفرد إلى تعلم أكثر من لغة، كما يتعايش المجتمع الذي يتحدث أفراده أكثر من لغة، والأمر ينسحب أيضا على الإنسانية برمتها. من منطلق أن اللغة هي الفكر، وكلما عمد الإنسان إلى تطوير فكره وجعله أكثر تحضرا كلما انعكس الأمر إيجابيا على واقع اللغة ومن ثم اللغات.

إن نجاح التعدد اللغوي في مجتمع ما، وهو ما توصلت عليه هذه الورقة البحثية، رهين بتجاوز مواطن الاستلاب الحضاري، وملح ذلك هو إحساس بهوية مطمئنة مقتنعة بمجالها التداولي، وتغني بالإضافة المحققة عبر إسهامات اللغات والثقافات المختلفة، مع العلم أن صراع القيم والمرجعيات أمر وارد في التعاملات بين البشر والمجتمعات في ظل منطلق الحوار والتواصل ضمن أبجديات التعايش، الاعتراف والتسامح، بيد أنه يفقد معناه وجدواه حينما يتحول إلى صدام مبدؤه ومنتهاه هويات متعصبة تعتمد على الإقصاء ولا تعترف بمبدأى التواصل والتعايش.

الهوامش

1-Sapir Edward, Le Langage, Tr : S.M. Guillemin, Payot, Paris, 1976, P12.

2- Kaplan Robert & Baldauf Richard, Language Planning from Practice to Theory, Multilingual Matters, LTD, Uk and USA, 1997, P 3.

3-Samovar L, Porter R & McDaniel E, Intercultural Communication: A Reader, Wadsworth Cengage Learning, Boston, USA, 2009, P10.

4- شايفال داريوش، أوهام الهوية، تر: محمد علي مقلد، دار الساقى، بيروت، ط1، 1993، ص 06.

5- حرب علي، خطاب الهوية، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط2، 2008، ص13.

6-Li Wei Peter Auer, Handbook of Multilingualism and Multilingual Communication, Walter de Gruyter, Berlin, Germany, 2007, P 45.

7-Edwards John, Multilingualism, Routledge, London and New York, 1 Published, 1994, P33.

8-Ibid.

9- كالفي لويس جان، حرب اللغات والسياسة اللغوية، تر: حسن حمزة، مطبوعات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2004، ص ص 204:205

10- Ennagi Moha, Multilingualism, Cultural Identities and